

## منهج البحث الاجتماعي للأستاذ إميل دوركايم

( تمة ما نشر في العدد الماضي )

ثانياً - أبواب علم الاجتماع : العلوم الاجتماعية الجزئية

يتميز كون في علم الاجتماع بين قسمين : الاجتماع الاستقراري والاجتماع الديناميكي ( التطوري ) . ويدرس الاجتماع الاستقراري *statique* المجتمع من حيث هو ثابت في وقت معين من حياته ، ويبحث عن قوانين توازن المجتمعات ؛ فإن الأفراد يحيون في كل لحظة حياة معينة ، وتقوم بينهم علاقات معينة تكفل التماسك الاجتماعي . ويجب أن يكون هناك نوع من العلاقات المحددة بين جميع مظاهر الحضارة المختلفة في كل وقت ، بمعنى أن حالة معينة من العلم مثلاً يتصل بها حالات معينة من الدين والأخلاق والفن والصناعة وما إلى ذلك ؛ فالاجتماع الاستقراري إذن يبين هذه العلاقات والروابط التي يقوم عليها التماسك الاجتماعي . أما الاجتماع التطوري *dynamiques* فإنه يدرس المجتمع في تطوره ويبحث عن قوانين ذلك التطور . ويرى كون أن هناك قانوناً واحداً للتطور هو « قانون الحالات الثلاث *Lois de trois états* » ، تمر الإنسانية بمراحلها في تطورها ؛ والإنسانية تتطور دائماً . وهذه المراحل أو الحالات هي : المرحلة اللاهوتية ، المرحلة التيافيزيقية ، مرحلة العلوم الوضعية . ولما كان علم الاجتماع أعقد العلوم الوضعية كلها فإنه يتناول ، لا مشكلة واحدة فحسب ، بل مشاكل ومسائل مختلفة ومتعددة بتعدد مظاهر الحياة الاجتماعية . فهناك إذن فروع لعلم الاجتماع ، أو علوم اجتماعية جزئية بمقدار تلك المظاهر المختلفة للظواهر الاجتماعية التي لم تحصى بعد . ويرى دوركايم أن من سبق الوقت أن نضع تصنيفاً منهجياً للظواهر الاجتماعية لتعقدها وتمدها ، ولكن من الممكن ، في نظره ، أن نبين بشكل ما الأقسام الرئيسية التي ينقسم إليها علم الاجتماع

إن أول ما يتوجه إليه نظر الاجتماعي هو المجتمع من ناحيته الجبروتية ، فيظهر له أنه تكون من كتلة من السكان لها عدد

معين وكثافة معينة ، وتسكن أرضاً معينة تتوزع عليها بشكل معين ، وترتبط بما حوله من المجتمعات علاقات وروابط معينة ، وفيه طرق مواصلات تفرضها طبيعة الأرض ، وهكذا . ولا شك أن ذلك كله من العوامل العامة التي لها أثرها في الحياة الاجتماعية ، بل إنها أساس تلك الحياة . فكما أن الحياة النفسية في الفرد تتغير تبعاً للبناء التشريحي للمخ ، كذلك تختلف الظواهر الاجتماعية حسب اختلاف البناء الاجتماعي . فلا بد إذن من وجود علم اجتماعي يكون بمثابة علم التشريح ، ويدرس التكوين المادي الخارجي للمجتمع . هذا العلم هو ما يسميه دوركايم « بالمورفولوجيا الاجتماعية » ( أو علم تركيب المجتمع ) *La morphologie sociale* . ولا تصف المورفولوجيا الاجتماعية المجتمع وتركيبه فحسب ، بل تحاول تفسير ما تراه ، فتفسر مثلاً سبب تجمع السكان في موضع دون آخر ، وهل التجمع يكون في المدن أكثر منه في الريف أو العكس وسبب ذلك ، وتبين سبب نشأة المدن الكبرى وهكذا . فهي أشبه نبيء بالجغرافية البشرية ... ووضح من ذلك أن هذا العلم الجزئي يعالج بدون موضوعات ومشاكل مختلفة ومتعددة

ولئن كانت المورفولوجيا الاجتماعية تدرس الهيكل المادي الخارجي للحياة الاجتماعية ، فإن هناك علماً آخر يدرس هذه الحياة نفسها ، وهو ما يسمى بعلم الوظائف الاجتماعية ( أو النظم الاجتماعية ) *la physiologie sociale* ، وهذا العلم معقد أيضاً أشد تعقيداً ومركب من عدة علوم جزئية مختلفة

فهناك أولاً المعتقدات والنظم والشعائر الدينية . والدين ظاهرة اجتماعية لا يمكن أن تتمثل إلا في مجتمع ، وتدعمه جماعة أو هيئة لها أصول ومراسم تدير عليها دائماً ؛ وهذه الهيئة هي الكنيسة في أوروبا . وكثيراً ما يتدخل الدين في السياسة ويتصل اتصالاً قوياً بالسلطة السياسية . والدين - ويدخل في ذلك الخرافات والأساطير وما شابهها عند البدائيين - سيطرة قوية على النفوس ، ولا بد للمجتمع أن يحترمه ويخضع له . ويرى دوركايم أن دراسة الدين هي أهم ناحية في دراسة المجتمع ، وهي تكون ما يسمى بالاجتماع الديني *la sociologie religieuse* . ثم هناك الأخلاق والمادات ، وهي أيضاً ظاهرة اجتماعية هامة ، فلا يمكن تصور إنسان أخلاقي يحيا وحده ، إنما تنشأ الأخلاق من اتصال الناس وتعلق بمعاملات بعضهم ببعض في المجتمعات ؛

لإنسان أن يلم بمشاكله جميعها ، بل لا بد من أن يتخصص في إحداها . وليس هذا يعني أن ليس هناك علم كلّي تركيبي يجمع النتائج الهامة لكل فرع من هذه الفروع الجزئية ؛ فإنه مهما كانت الظواهر الاجتماعية مختلفة ومتعددة ، فإنها ليست إلا أنواعاً لجنس واحد . ومن الممكن دراسة ما يؤلف وحدة الجنس وما يميز الظاهرة الاجتماعية في ذاتها . والعلم الذي يهتم بذلك هو علم الاجتماع العام sociologie generale الذي يستخرج القوانين العامة من الجزئيات . وهذا هو الجانب الفلسفي لعلم الاجتماع

### ثالثاً - المصباح الاجتماعي

بعد ما سبق يجب علينا أن نبين النهج المتبع في دراسة هذا العلم  
إن الشاكل الرئيسية في علم الاجتماع تتلخص في البحث عن كيفية تكوين نظام سياسي أو قانوني أو ديني الخ ... وعن أسباب وجود تلك النظم . والتاريخ المقارن هو أحسن وسيلة تساعد الاجتماعي على حل هذه المسائل . فالنظم الاجتماعية معقدة - أشد التعقيد وصعوبة من أجزاء عديدة ، فلكي تفهمها لا بد لنا من أن ندرس كلاً من هذه الأجزاء على حدة ، لأننا لن نفيد شيئاً من دراسة النظام كاملاً على ما هو عليه الآن ، بل لا بد من الرجوع إلى بداية نشوئه ومتابعة تطوره خلال التاريخ ملاحظين ارتباط هذه الأجزاء المتفصلة بعضها ببعض حتى يصل النظام الاجتماعي إلى شكله الحالي . . . . . لنأخذ مثلاً لذلك ظاهرة القرابة وهي من الظواهر التي تبدو بسيطة ؛ فإننا حينما نحاول دراستها تظهر لنا لأول وهلة فكرة القرابة الأبوية ؛ ولكننا إذا تقبنا خلال التاريخ ظهرت لنا فكرة أخرى وتصور آخر من القرابة وهي القرابة التي تنتمي إلى الأم ؛ فهناك عائلات نعرفها خلال دراسة التاريخ لا نعرف إلا هذا النوع الأخير من القرابة ، ولا تلعب القرابة الأبوية فيها إلا دوراً ثانوياً . ولكن القرابة الآن مزدوجة ، تعتبر الناحية الأبوية كما تعتبر الأم ، فكيف وصل هذا النظام إلى ذلك ؟ هنا أيضاً تتبع خلال التاريخ مرور هذه الظاهرة في كلتا الحالتين خلال حضارات مختلفة ، حتى نندمجاً معاً ويصلا إلينا على هذه الصورة الحالية المزدوجة . فبالإضافة إلى ذلك نفسر ونبين علل الظواهر الموجودة ؛ والتاريخ يلعب في نظام الحقائق الاجتماعية دوراً يماثل الدور الذي يلعبه

وفرع علم الاجتماع الذي يدرس الأخلاق هو الاجتماع الأخلاقي sociologie morale . ويتصل بالاجتماع الأخلاقي فرع آخر هو الاجتماع القانوني sociologie juridique ، وهو يدرس النظم التشريعية ، والقانون الذي يتصل أشد الاتصال بالحياة الاجتماعية وينظمها ، ويحدد أفراد المجتمع . وهناك أيضاً النظم ويدرسها الاجتماع الاقتصادي sociologie économique ، وهو يبحث كل ما يتعلق بالإنتاج والمبادلة والثروات والتوزيع . هذه هي الفروع الرئيسية ؛ ولكن هناك علمين جزئيين آخرين هما الاجتماع اللغوي sociologie linguistique الذي يدرس اللغة من حيث هي ظاهرة اجتماعية تعتمد في وجودها على وجود مجتمع ما بين أفراد معاملات وصلات ، ومن حيث هي تحمل خصائص المجتمع الذي توجد فيه ، بحيث يمكن الاستدلال من اقتراب اللغات على اقتراب الشعوب . ثم أخيراً هناك الاجتماع الجمالي sociologie esthétique ، وهو يدرس أعمال الفن ؛ فإن الفنان - شاعراً كان أو خطيباً أو مثلاً أو قاصداً - يظهر ذاتية مجتمعه الخاصة في أعماله ، فهو يستمد معانيه الفنية من البيئة الاجتماعية في عصر معين فيعبر عنها ويخاطب بها أناساً غيره ، مما لا يتيسر إلا في مجتمع

وقد درست بعض هذه الأبواب من قبل دوركايم وخاصة الظواهر الاقتصادية التي كانت تدرس تحت اسم « الاقتصاد السياسي Economie Politique » ولكن هذا العلم كان يهتم بما يجب أن يكون أكثر من اهتمامه بما كان أو بما هو كائن . ولا ينظر الاقتصاديون إلى الحقائق الاقتصادية نظرة العلماء إلى الحقائق العلمية الفيزيائية مثلاً ؛ ولذلك لا يرون ضرورة دراستها دراسة نظرية قبل محاولة الإصلاح . ثم إنهم يظنون أن الناحية الاقتصادية بمידة كل البعد عن بقية نواحي الحياة الاجتماعية أو أنها مستقلة بذاتها ، ينما يرى دوركايم أننا لا يمكننا تفسير الظواهر الاقتصادية إذا لم نعتمد ونتجىء إلى بقية الظواهر الاجتماعية ؛ فأجر العمال مثلاً لا يتوقف فقط على العلاقة بين « العرض والطلب » بل على علاقات أخرى اجتماعية أخلاقية كنظرتنا إلى الشخص الإنساني واعتباره وفكرتنا منه وتقديرنا له من حيث هو إنسان

فواضح إذن من التحليل السابق كيف أن علم الاجتماع لا يدرس مشكلة واحدة بل عدة مشكلات ، بحيث لا يمكن

## الميكروسكوب في نظام الحقائق الفيزيائية

وبذلك يمكن القول إن علم الاجتماع هو إلى حد كبير نوع من التاريخ . والمؤرخ أيضاً يعالج الظواهر الاجتماعية ، ولكنه يعتبرها من ناحية خاصة من حيث تعلقها بشعب من الشعوب في زمن معين وفي مرحلة معينة من مراحل تطوره . أما الاجتماعي فإنه يحاول الوصول إلى علاقات عامة وقوانين كلية عن المجتمعات المختلفة . نعم قد يدرس دراسة خاصة ظاهرة ما مثل حالة الدين أو القانون مثلاً في فرنسا أو إنكلترا أو روما أو الهند في هذا القرن أو ذاك ، ولكن مثل هذه الدراسات إنما هي في الواقع وسائل فقط للوصول إلى بعض عوامل الحياة الدينية على وجه العموم ؛ ولذا فإن الاجتماعي يقارن في دراستين مجتمعات من نفس النوع أو بين مجتمعات من أجناس مختلفة ليتأدى إلى ما يريد وهناك منهج آخر عند دوركايم غير التاريخ ، وهذا المنهج نستخدمه حينما نبحث لا عن كيف تكون نظام اجتماعي ما ، بل سبب تمثل هذا النظام أو هذه الظاهرة في هذه المجتمعات تمثلاً متفاوتاً . مثلاً حينما نمرض لدراسة ظاهرة مثل جريمة القتل ؛ فإننا بدلاً من أن نبحث أين تأتي هذه الظاهرة ، نتساءل عن أسباب تفاوت حفظ المجتمعات المختلفة منها ، فبعضها تشيع فيها بكثرة ، وبعضها لا تظهر فيها إلا قليلاً . وكذلك الحال في ظاهرة تفاوت الزواج والطلاق كثرة وقلة في المجتمعات المختلفة وهكذا . ففي مثل هذه المسائل تلجأ إلى الإحصاء la statistique (١)

(١) مع أن دوركايم لم يذكر في هذه المقالة إلا الطريقة المقارنة والإحصاء كتجهين اجتماعيين ، إلا أن هناك طرقاً أخرى تشمل كتابته أيضاً وهي : التحقيق العام L'enquete وهو يستخدم لدراسة الظواهر الحاضرة القائمة أو التي كانت في الماضي القريب ، كالتحقيق في الجرائم مثلاً . ثم التحقيق الخاص monographie ، وميدان بحث ضيق ، ويتناول موضوعاً واحداً كدراسة أسرة معينة من جميع نواحيها وتعميم ما يتوصل إليه من نتائج ، وسحبها على الأسر الأخرى المماثلة ، وهذا التعميم من العيوب التي تؤخذ على هذه الطريقة . ثم هناك الوثائق للكتابة documents ecrites كدراسة القانون والنشورات الحكومية ودلائل الحركات وغير ذلك . وهذه الطرق على العموم فائدتها أقل من التجهين القذين ذكرهما دوركايم هنا . والمنهج لا بد له من شروط ، وقد بين دوركايم هذه الشروط في كتابه : قواعد المنهج الاجتماعي Les règles de la methode sociologiques ، وهذه الشروط هي : ١ - وجوب اعتبار الظواهر الاجتماعية كالأشياء ٢ - وجوب نبذ كل فكرة سابقة عن الظاهرة التي تعالجها ٣ - تعريف الظواهر التي تدرسها وتحديدتها وتوضيح

وصها يمكن المنهج الخاص الذي يقيمه الاجتماعي في دراسته فإنه يجب عليه حين يدرس ظاهرة ما أن يتقاضي تماماً كل فكرة قد يكون كونها لفظة فيما سبق ، وأن يتناول الظاهرة كما يتناول علماء الطبيعة والكيمياء والفسولوجيا والسيكولوجيا ، وضوابط دراستهم ، وإن كان من الصعب تحقيق ذلك في علم الاجتماع ، لأننا نكون أثناء حياتنا اليومية بعض أفكار عن الأخلاق والقانون والمعاملات الاقتصادية وغير ذلك . ومن العسير نسيان هذه الأفكار .

(الأسكندرية)

أحمد أبو زيد

— أنواعها المختلفة وما بينها من فروق ٤ — عدم التحيز إلى بيئة معينة ، بل يجب القضاء على حساسية عالم الاجتماع الخاصة ٥ — وجوب التفرقة بين الظواهر الصحيحة السليمة والظواهر الشاذة المريضة . ( راجع في ذلك كتاب قواعد المنهج الاجتماعي لدوركايم . كذلك استندت في كتابة هذه الحاشية بمحاضرات علم الاجتماع التي ألقاها الأستاذ عبد العزيز عزت مدرس علم الاجتماع بجامعة فؤاد الأول على طلبة قسم الفلسفة بجامعة فاروق الأول عام ١٩٤١ )

اليوم ١٨ أغسطس



في سبيل الكورسال أربع حفلات يومياً